المتخصص الاجتماعي

في معركة الاصلاح [1]

لمحمد المشماوي بك

سيداتي، سادتي، بناتي الطالبات، أبنائي الطلبة: أحييكم وأحيي مدرسة الخدمة الاجتماعية التي أتاحت لي فرصة أخرى لمعاودة الحديث في ناحية من نواحي معركة الاصلاح الاجتماعي، وقد علمتم رأيي في هذه المعركة من خلال الموازنة التي عقدتها بينها وبين معركة الحرب. فقد أبنت لكم أن معركة الاصلاح يجب أن تأتي في مقدمة المعارك جميعها، فلا أمل في إصلاح ما لم تحشد له قوانا جميعها، وأنه لاصلح في تلك المعركة ولا هدنة ولا استجمام. وإذن لا يكفي أن نتحدث في شأنها حديثاً أو حديثين. وإنما يجب أن يتصل حديثنا ما دامت تطالعنا المعركة بنكباتها وتدق علينا طبولها في كل آن

ومما لاشك فيه أن رسالة مدرسة الخدمة الاجتماعية إعداد الجنود للكفاح في ميدان الاصلاح الاجتماعي. فاذا تحدثت اليكم فيما يجب أن يتوافر للجندي الاجتماعي فانما أتحدث في شأن من شئون الاعداد العلمي النظري للخدمة الاجتماعية. وقد أفردت حديث الليلة لمهمة المتخصص الاجتماعي بعد أن ألممت بمهمته إلماماً في حديثي السابق، وذلك لأن مهمته من سمو المكانة وعظيم الخطر بحيث يتعين أن يفرد لها حديث خاص، وأن تكون في مقدمة ما يشغلنا من شئون تنظيم المعركة وتوفير ما تتطلبه من قوة وعتاد وجنود. وإذا نظرنا إلى الحياة العالمية نظرة عامة وضح لنا أن البيئة المصرية أصلح بيئة للكفاح في سبيل الاصلاح في مختلف ميادينه فما أحسب أنه قد تجمع في بيئة ما تجمع في مصر من عوامل الشر التي تجب مكافحتها. فهل تفتك الأمراض ببلد متحضر فتكها بمصر التي أثبتت موازنات إحصائياتها أن كل فرد مصاب بعلتين على الأقل، وأن أغلب الأمهات فيها يسقن للقبر؟ وهل يحدث الفقر من الأثر ببلد متحضر ما يحدثه بمصر حتى ليهبط بمورد كثير من الأفراد الى ستة جنيهات في العام يواجهون بها مطالب الحياة في أشق ظروف الحياة؟ وهل تغشى الأمية والجهل بلداً متحضراً كما تغشى مصر التي لم يزد من يعرفون القراءة والكتابة فيها على عشرين في المائة؟ وهل أهمل تثقيف الفتاة في بلد كما أهمل في مصر التي لاتزال نسبة المتعلمات فيها نحو خمسة في المائة؟ وهل تجري السياسة الاقتصادية

(١) ألقيت في مدرسة الخدمة الاجتماعية في ٧ ديسمبر ١٩٤١

والاجتماعية والثقافية في بلد كما تجري في مصر حتى الارتجال والحل الوقتي للمشكلات دون تفكير في مصدر الداء والعمل على شفاء البلاد منه شفاء ناجعاً حاسماً ؟

من هذا تتبينون أن الحياة المصرية في حاجة ملحة الى مجهودات متصلة في سبيل الإصلاح وأن مهمة المصلح الاجتماعي فيها عسيرة شاقة . ولهذا كان إعداد جنود الإصلاح وتبصيرهم بسمو رسالتهم وخطر واجباتهم جديراً بتفكير المفكرين وحديث المتحدثين

وقد قلت في حديثي عن معركة الاصلاح إن التجنيد لها يجب ان ينتظم أهل البلد جميعاً لا فرق بين رجل وامرأة ولا بين شيخ وشاب ، ولا بين شعب وحكومة . فالاسلام حين عدّد واجبات الرعاية جعل كلاً راعياً وكلاً مسئولاً عن رعيته . فالجنود هم أفراد الأمة على بكرة أبيها بما توافر لكل منهم من ثقافة أو تجربة أو جاه أو مال

ولا يتسع لي المجال في هذا الحديث لأتكلم في وسائل إعداد أفراد الشعب جميعاً للكفاح في سبيل الاصلاح، ولذلك أقصر كلامي على إعداد المتخصص الاجتماعي وحده

ومثل الخدمة الاجتماعية كمثل المعركة الحربية تتطلب جنوداً مدرّبين يدرسون فنون الحرب ويحذقون استخدام معداتها ، وتتطلب ضباطاً يتولون قيادة الجيش وتنظيم الصفوف وتوجيه الحملات، وتتطلب غير هؤلاء وهؤلاء جيشاً مرابطاً عدا الجيش العامل . وكذلك الشأن في معركة الاصلاح يجب أن يهيأ لها جنود تثقفوا فنون الكفاح، ومن ورائهم جنود احتياطيون، كما يجب أن يهيأ الشعب كله للمؤازرة وقت الحاجة . فإن اقتصرنا على طبقة الجنود المدربين وتركنا الأمة في عزلة كان فشلنا في المعركة محققاً . فأنا إذ أتكلم في شأن المتخصص الاجتماعي فإنما أعني الجند الذين يعدون إعداداً خاصاً . ولكني لا أغفل القوى الاحتياطية التي تشد أزرهم وتحمي ظهورهم بالمال آناً وبالروح المعنوية آناً . وأولئك الجند هم الذين يدربون تدريباً فنياً لخوض المعركة والبلاد من ورائهم تزودهم بكل القوى التي تمكن الجيش العامل من الثبات في الميدان ومواصلة الكفاح حتى يقضي على عوامل الشر

فماذا يجب أن يتوافر للمتخصص الاجتماعي من إعداد وقوى ؟ أول ما يجب أن يتسلح به قلب كبير عامر بالإيمان ، لأنه إذا ضعف إيمانه أو تزايل تعرّض للاخفاق المحقق، وذلك لأن الكفاح في ميدان الاصلاح نوع من أعمال الرسالة، وهي لا تؤدى إلا بإيمان وطيد لا تزحزحه مغريات الدنيا ولا نوائبها ولا الطمع في جاه أو مال أو منصب . فواجب أن نربي المتخصص الاجتماعي على الايمان القويّ . ولن تؤتي هذه التربية ثمرتها إلا إن استندت إلى دين وعقيدة فالرسل جميعاً جاءوا بالهدى والحق، بعثهم الله لاصلاح البشر . ولقد صدر الأنبياء والرسل عن عقائد ثابتة بلغوا بها ما أرادوا . ولا يتسنى للمتخصص الاجتماعي أن يمضي في طريقه قدماً إلا إذا كانت تحدوه عقيدة دينية ثابتة سليمة لا تتزعزع، تملأ صدره نوراً وتدعة لا يرضى

غير وجه الله والمصلحة العامة سبيلاً . فعلينا أن نستعين بالروح الدينية في صفاء جوهرها لتكون وسيلتنا في العمل للاصلاح . ولتعلم أن فاقد الشيء لا يعطيه فلا يقدر أن يبث عقيدة الاصلاح الاجتماعي داع اجتماعي لا عقيدة له ولا إيمان . وإن كثيراً من دعوات الاصلاح لتذهب هباءً لأن القائمين بها لا يصدرون عن قلوب عامرة بالايمان ، أو لأنهم في أحوالهم الاجتماعية الخاصة أبعد ما يكونون عن روح الاصلاح الذي يدعون اليه

كذلك يجب أن يكون المتخصص الاجتماعي واسع الأفق في المعرفة بأحوال الناس بصيراً بما يؤثر في الخاصة والعامة ، دارساً للحياة الاجتماعية في مختلف نواحيها دراسة تعينه على الاستنتاج والعلاج . فاذا عالج رفع المستوى الاجتماعي لبيئة خاصة كان عليه مثلاً أن يتعرف الحالة الاقتصادية أكمل تعرف ، لأن للاقتصاد أثره في شيوع المرض وتفاقم الفقر وانتشار الجهالة ، فمقومات الحياة في الأمة حلقة مفرغة . إذا ساءت الاقتصاد مثلاً ساءت الصحة وساءت الثقافة . وإذن فلا بد للمتخصص الاجتماعي من دراسة تقفه على حقيقة العوامل التي كانت سبباً في انخفاض المستوى الاجتماعي والصحي والثقافي والخلقي للبلاد .

ويجب أن تتعاون المرأة مع الرجل في ميدان الاصلاح ، فاذا لم يتسائد العنصران على أداء مهمة الاصلاح ضعف الأمل في النجاح . ولقد خلق الله الزوجين الذكر والأنثى وجعل لكل منهما طبيعة خاصة يلائمها عمل خاص . فالمرأة بطبيعتها مربية الجيل ، وهي الروح المعنوية الحافزة ، وهي باعثة الطموح وصدق الهمة ، وهي ملهمة الرشد أو الغي . ولقد كان لها دائماً هذا الأثر في البدو والحضر وفي فجر الحضارة وضحاها . وإني ليحضرني قول أحد أصحاب المعلقات في حفز الهمم

على آثارنا بيضٌ حسانٌ نحاذر أن تقطع أو تهونا
يفتنَ قيادنا ويقلنَ لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا
إذا لم نحمهنَّ فلا بقينا لشيءٍ بعدهنَّ ولا حيينا

فعلينا ألاّ نهمل إعداد المرأة للعمل في الميدان الاجتماعي وأن ندفعها إلى الكفاح فيه بما حباها الله من صفات الصبر وقوة الاحتمال وروح العطف والتفدية والايثار . ولكن يجب أن نعدها لمهماتها الاجتماعية الطبيعية ، فمكانها من الميدان مؤخرته تدفع الرجال إلى الأمام . ولديها في هذا المكان من جسام الأعمال ما يشغل وقتها ويستنفد جهدها ، فهي تتلقى الطفل من ولادته الى رجولته . واليها ينتهي الأمر في تنشئته وتغذيته وتثقيفه وتقويم أخلاقه في مراحل حياته الأولى . فلنعد المرأة لرعاية الطفل وحل مشكلاته ترعى ذكاءه حتى لا يخبو وتبعث فيه الحرارة حتى لا يخمد . ولنعدها أيضاً لمشكلات الأسرة تعالجها زائرة أو مقيمة وتحل عقدتها في بيتها أو في بيوت الناس . فأما الرجل فعنده الميدان الثقافي والصحي والاقتصادي والارشاد العام . على أننا الآن في مجتمعنا أشبه ما نكون بمن تظلهم حالة الحرب . البلد في خطر .

والعدو كثير والهجوم من نواحٍ عدة والغارات متوالية . فالحالة تتطلب اشتراك العنصرين معاً لانقاذ البلاد وليس يجزىء أن ينفرد كلٌّ بعمل . فالمرض تقاومه المرأة والرجل في الفرد والأسرة، والاقتصاد تشترك فيه المرأة بما تضع من تدابير صالحة تكفل بها أن يفي القليل بالحاجة

ويودي أن أني عن المتخصص الاجتماعي رجلاً كان أو امرأة أن عمله نوع من الوظائف تخضع لرآسة ترتجى ، وتتعلق بآمال ترتقب . وإنما يجب أن تتوافر لمن يلي هذا العمل صفات من النبوّة . فيقبل على مهمته في غير انتظار للجزاء بل في توقع الأذى ، ويضع نصب عينيه أن فكرة الاصلاح تتنافى مع النفع لأن أساسها التعدية بكل شيء حتى بالنفس إذا اقتضت الحال

وعلى المتخصص الاجتماعي أن يكون حكيما لبقاً فيما يواجه من أزمات وما ينبغي من إصلاح . وأن يرعى سنة التطور ، فلا يقدم على تغيير شيء لم تهيأ لتغييره الوسائل والنفوس وإلا كانت دعوته إلى الاصلاح دعوة إلى الثورة مما يجعله مفسداً لا مصلحاً . فإذا صادفته في مجتمعنا المصري تلك الفكرة الشائعة حتى في أوساط المتعلمين التي تقول بزيادة المتعلمين عن حاجة البلاد ، وجب أن يتدبر الباعث على هذه الفكرة ، ليرى أن عذر الناس في إذاعتها كثرة المتعطلين ممن تعلموا ودرسوا . وإنها لمشكلة تدعو إلى العجب أن تكون حاجة البلاد الى المتعلمين ممتنعة أو قليلة ، على حين أن عدد الذين تعلموا القراءة والكتابة في مجموع الأمة لا يتجاوز العشرين في المائة . فكيف نعالج تلك الفكرة وكيف نعالج تلك المشكلة ؟ لنقنع الكافة بأن البلاد ما فتئت متعطشة إلى مناهل العلم وأن الحاجة الى الاكثار من المتعلمين لا تزال ملحة . لزامٌ على المصلحين أن يفكروا طويلاً ليدركوا أساس الخطأ في هذا التقدير . وإذن فما العلة في تعطيل من خرجتهم المعاهد على مس الحاجة إلى أضعافهم جميعاً . الحق أن مثلنا في ذلك مثل من يذهب الى أعالي النيل ليقيم مصنعاً لنسج الثياب حيث يظل القوم عراةً فهل يتوقع أن يقبل الناس على ترويج بضاعته ؟ وهل يدل عدم الاقبال على شراء الثياب على أن القوم استوفوا حاجتهم إلى الكسى . تلك حالنا : ضاق مجتمعنا بالمتعلمين لأننا في شئوننا الحيوية لا نعتمد على المتعلمين . فالطب قائم في الكثير على الذين يمارسون التطبيب من طريق الدجل والخرافات، وهندسة البناء قائمة على علمة البنائين، والمحاماة لا تخلو من الدخلاء غير المتقنين . ودور التجارة لم تتسع لمن درسوا فن التجارة، والزارع لم يتول العمل فيها المختصون . وبذلك نصب معين الأعمال أمام المتعلمين، لأن العقلية الاجتماعية للأمة وقفت في طريقهم عقبة كئوداً . ولقد قلت في حديث لي إن عطلة المتعلمين سببها قلة المتعلمين . وما زلت أرى وجه الصواب في هذا القول . فلو انتشرت الثقافة وارتقت عقلية الأمة ومستواها الاجتماعي لعظمت حاجة البلاد الى هؤلاء المتعلمين المتعطلين، بل لشعرت بأنهم دون كفايتها . فالمصلح الاجتماعي يلقى في مصر حالة مال عليها العهد وعقلية وان عليها الجهل فألفها الناس . ولذلك يرى طريقه الى الاصلاح

شاقّاً عسيراً ، إذ يصادف فيمن يصادف أناساً عشيت أبصارهم فيؤذيهم النور، وعميت بصيرتهم فلا يتبينون طريق الهدى . فهو مطالب أن يدفع أولئك الى تفكير جديد ونظر جديد وهو مضطر أن يعمل شيئاً فشيئاً في تغيير أوضاع الحياة ومعايير الاخلاق

ولعلّ أهم ما يجب على المصلح الاجتماعي أن يرعاه هو تجنب الوقوع في الطفرة وإثارة روح الفتنة . فاذا أراد أن يعالج مشكلة الفقر وجب ألاّ يبث في نفوس الفقراء روح التمرد والانتقاض الفاجىء على نظام المجتمع، فتقع الفرقة وتضطرم الفتنة . وإنما يتوجه الى الاغنياء فيذكرهم بما فرضه الله للفقراء في أموالهم من حق ، ويطلب اليهم أن يؤدوه لوجه الله والوطن، وأن يرفهوا بالفضل من مالهم عن البائس والمحروم . فان لم يلق من ذوي الغنى آذاناً تعي أو قلوباً تعطف دعا إلى اتخاذ التشريع سلاحاً يستنقذ به هذا الحق في الاموال. ثم يلتفت ذلك المصلح الجدير بهذا الوصف إلى الفقراء ، لا ليبذر بذور الشقاق والبغضاء بينهم وبين الاغنياء ، بل ليحببهم في التعويل على النفس والسعي وراء أسباب الكسب ، واستشعار الكرامة والانفة من قبول العطية والاستنامة الى المعونة . فان وجههم الى ذلك فقد وجههم الى طريق الكرامة والانتاج الشريف وجنبهم المذلة والمسكنة . وبديهي أن الرغبة في البذل ضعيفة عند من يملكون البذل، ومهما تقل للمترفين : انزلوا عن شيء من أموالكم حتى لا يثور عليكم الفقراء والبؤساء فقلما ترجو منهم تلبية للدعوى أو إسراعاً لبذل المعونة . ولن يفوتكم أن العرب حين ارتدوا عن الاسلام على أثر وفاة النبي الكريم كان أول حافز لهم على الردة رغبة الفرار من أداء فريضة الزكاة ، ولو رفعت عنهم هذه الفريضة لما وقفوا في أغلب الظن هذا الموقف

والمصلح الاجتماعي مضطر الى أن يترفق في الدعوة الى البذل وأن يعالج بكل الوسائل روح الانصراف عن البر فيحببه الى الناس بمختلف الحجج والرغبات، وعليه أن يعمل في تنظيم البر وتوجيهه وجهة صالحة فان ذلك الاحسان غير المنظم من شأنه أن يقوي في النفوس الاستعداد للاستجداء المزري والركون للدعة والبطالة، وبذلك تتجه بالبر وجهة جديدة وهي تهيئة الوسائل للفقراء والضعفاء . فتهيء للمريض وسائل الاستشفاء ولجاهل وسائل التثقيف وللمتعطل أبواب العمل . وعلى هذا النحو يرتفع المستوى الاجتماعي للأمة في مختلف النواحي وتيسر الحياة للفقراء ويتحقق التكافل العام في شتى مظاهره والانتاج في كل مرافقه

وإني إذ أختم هذا الحديث أرى أن مهمة التخصص الاجتماعي في جلالة خطرها ليست بالتي يستطاع أن يستوفى حديثها في وقفة أو وقفات. ولذلك أجتزىء في مقامي هذا بما أجملته لكم آملاً أن تتهيأ لي الفرصة لاستئناف الحديث ، فالحديث عن الاصلاح ومعركة الاصلاح يجب أن يطغى على الأحاديث التي يتندر الناس بها في مجالسهم. ولكن شعارنا جميعاً التواصي بالاصلاح نوجه الدعوة اليه طاقة خالصة ، ونتلقاها عاملين مخلصين !